"بُيُوْتُ الْمُؤْمِنِيْنَ ؛ وَصْفُهَا الْمُبِيْنُ ، وَحِفْظُهَا الْأَمِيْنُ" .

حَلَقَاتٌ عِلْمِيَّةٌ تَرْبَوِيَّةٌ ، أَصِفُ فِيْهَا الْبُيُوْتَ الْمُؤْمِنَةَ ؛ عَقِيْدَتَهَا وَأَخْلَاقَهَا ، ثم أُذَكِّرُ بَعْدَهَا بِالتَّرَاتِيْبِ السَّلَفِيَّةِ الضَّرُوْرِيَّةِ فِيْ طُرُقِ وَأَسَالِيْبِ حِفْظِهَا مِنْ عُدْوَانِ الْفِرَقِ الْمُعْتَدِيَةِ .

حَلَقَاتٌ مُهِمَّةٌ ، وَبِخَاصَّةٍ فِيْ أَزْمِنَةِ الْغُرْبَةِ ، مُوَجَّهَةٌ لِجَمِيْعِ أَفْرَادِ الْأُسَرِ الْمُسْلِمَةِ ، صَانَهَا اللهُ مِنْ خُطَطِ وَتَدَابِيْرِ ذَوِيْ الشُّرُوْرِ الْكَائِدَةِ .

الحلقة (الرابعة عشرة) :

-(بُيُوْتُ الْمُؤْمِنِيْنَ فِيْ الْإِسْلَامِ)-

"وَصْفُ عَقِيْدَةِ أَهْلِهَا الْمُوَحِّدِيْنَ ، وَأَخْلَاقِهِمْ" .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحابته والتابعين ... أما بعد :

(مقدمة)

في هذه الحلقة -إن شاء الله- سوف نتحدث عن شيء من فوائد الدعاء ، وذكر بعض مقاصده في التوحيد ؛ فنقول ، وبالله التوفيق :

ذِكْرُ بَعْضِ فَوَائِدُ الدُّعَاءِ ، وَبَيَانُ شَيْءٍ مِنْ مَقَاصِدِهِ فِيْ التَّوْحِيْدِ

من فوائده :

١) أنه يثبت عقيدة الداعي ، ويقويها ، ويخلص عبادته من شوائب الشرك ، والبدعة ، وينقيها ؛ فيؤمن -موقنًا- بألوهية الله وحده ، وأنه لا يدعى إلا هو ، ولا يستغاث ، ولا يستعاذ ، ولا يستعان إلا به ، جل وعلا .

وَيُؤْمِنُ بِرُبُوْبِيَّتِهِ ، وأن الكون كله ؛ بذراته ، وأبراجه ، وأرضه ، وسمائه ، وكل شيء فيه بتدبيره ، وتحت تصرفه ،

وَيُؤْمِنُ بِأَسْمَائِهِ ، وَصِفَاتِهِ ؛ يؤمن الإيمان الجازم بقدرة الله جل وعلا ، وعزته ، وملكه ، وملكوته ، ويؤمن أنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير ، وأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ، وأنه العلي الأعلى ، مستوي على عرشه ، استواء حقيقيًا ؛ كما يليق بجلاله ، سبحانه وتعالى ، وأنه -وهو في علوه جل وعلا- قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويكشف الضر ، وأنه الغني ، وكل الناس فقراء إليه ، وأنه عليم ،

سميع ، بصير ، يعلم ما يصلح العباد ، وما لا يصلحهم ، لا يخفى عليه شيء من أصوات الداعين ، ولا تختلط عليه لغاتهم ، ولهجاتهم ، السر ، والعلانية عنده سواء ، وأنه حكيم ، خبير ؛ له الحكمة البالغة ، فقد يعجل إجابة بعض الداعين ، ويؤخر آخرين ، لحكمة يريدها ، ومقصد يعلمه ، سبحانه وتعالى ، وأنه الرحيم ، الحليم ، الرؤوف ، الودود ، يحب التوابين ، الأوابين ، ويفرح بهم ، ويقبل دعاءهم ، ولو عظمت خطاياهم ، وتكاثرت سيئاتهم ، وغير ذلك من آثار أسمائه ، وصفاته تبارك وتعالى ،

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ اِبْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : "وإذا دعا العبد ربه بإعطاء المطلوب ، ودفع المرهوب جعل له من الإيمان بالله ، ومحبته ، ومعرفته ، وتوحيده ، ورجائه ، وحياة قلبه ، واستنارته بنور الإيمان ما قد يكون أنفع له من ذلك المطلوب إن كان عرضًا من الدنيا ، وأما إذا طلب منه أن يعينه على ذكره ، وشكره ، وحسن عبادته ، وما يتبع ذلك فهنا المطلوب قد يكون أنفع من الطلب ، وهو الدعاء، ، والمطلوب الذكر ، والشكر ، وقيام العبادة على أحسن الوجوه ، وغير ذلك"[1] ،

وَقَالَ –أَيْضًا– رَحِمَهُ اللهُ : "فكلما ازداد القلب حبًا لله ازداد له عبودية ، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًا وحرية عما سواه ، والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين : من جهة العبادة ، وهي : العلة الغائية ،

ومن جهة الاستعانة ، والتوكل ، وهي : العلة الفاعلية ؛ فالقلب لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا يلتذ ، ولا يسر ، ولا يطيب ، ولا يسكن ، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه ، وحبه ، والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ، ولم يسكن ؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه ، ومن حيث هو معبوده ، ومحبوبه ، ومطلوبه ، وبذلك يحصل له الفرح ، والسرور ، واللذة ، والنعمة ، والسكون ، والطمأنينة ، وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له ، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله ؛ فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٥٩٦) .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ﴾[الفاتحة:٥] ، فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ، ويطلبه ، ويشتهيه ، ويريده ولم يحصل له عبادته لله ، بحيث يكون هو غاية مراده ، ونهاية مقصوده ، وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله ، لا يحب شيئًا لذاته إلا الله ؛ فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة : "لا إله إلا الله" ، ولا حقق التوحيد ، والعبودية ، والمحبة وكان فيه من النقص ، والعيب بل من الألم ، والحسرة ، والعذاب بحسب ذلك ، ولو سعى في هذا المطلوب ، ولم يكن مستعينًا بالله ، متوكلًا عليه ، مفتقرًا إليه في حصوله لم يحصل له ؛ فإنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب ، المحبوب ، المراد ، المعبود ، ومن حيث هو المسئول ، المستعان به ، المتوكل عليه فهو إلهه ، لا إله له غيره ، وهو ربه ، لا رب له سواه"[(١)] ،

وَقَالَ –أَيْضًا– رَحِمَهُ اللهُ : " الأيدي إنما ترفع إلى الله نفسه –أي : في الدعاء–وأنه يجب أن يصح رفعها إليه حيث كان وأنه إنما اختص رفعها بجهة العلو لأن الله هناك ؛ إذ لو لم تجب صحة رفعها إلى جهته لم يجب إذا كان في كل مكان أن يصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض ، وإلى خلفنا ، وأيماننا ، وشمائلنا ... ، قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة –في كتاب مختلف الحديث له– : "نحن نقول في قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧] أنه معهم ، يعلم ما هم عليه ؛ كما تقول لرجل وجهته إلى بلد شاسع : احذر التقصير ؛ فإني معك ، تريد أنه لا يخفى عليَّ تقصيرك ، وكيف يسوغ لأحد أن يقول إنه سبحانه ، وتعالى بكل مكان على الحلول فيه ، مع قوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥] ، ومع قوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[فاطر:١٠] ، وكيف يصعد إليه شيء وهو معه ، وكيف تعرج الملائكة ، والروح إليه ، وهي معه ، ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرهم ، وما ركبت عليه خلقتهم من معرفة الخالق لعلموا أن الله هو العلي ، وهو الأعلى ، وأن الأيدي ترفع

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٩٢-١٩٣) .

بالدعاء إليه ، والأمم كلها ؛ عربها ، وعجمها يقولون : إن الله في السماء ، ما تركت على فطرها"[(١)].

وَقَالَ اِبْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : "وإذا تدبر اللبيب القرآن وجد الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه –وهو : أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ، ولا ضر ، بل الله وحده هو الذي يملك له ذلك كله– إلى الوجه الأول –في معنى ألوهيته– وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله تعالى ، والاستعانة به ، ودعاءه ، ومسألته دون ما سواه ، ويقتضي أيضًا : محبته ، وعبادته ، لإحسانه إلى عبده ، وإسباغ نعمه عليه ، فإذا أحبوه ، وعبدوه ، وتوكلوا عليه من هذا الوجه دخلوا منه إلى الوجه الأول ، ونظير ذلك : من ينزل به بلاء عظيم ، أو فاقة شديدة ، أو خوف مقلق ، فجعل يدعو الله سبحانه ويتضرع إليه حتى فتح له من لذيذ مناجاته ، وعظيم الإيمان به ، والإنابة إليه ما هو أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولًا ، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولا حتى يطلبه ، ويشتاق إليه"[(٢)]،

وَقَالَ –أَيْضًا– رَحِمَهُ اللهُ : " لقد وردت الآية –أي : ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ﴾– في معرض التعليم للعباد ، والدعاء حق الداعي أن يستشعر عند دعائها ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به ، إذ الدعاء مخ العبادة ، والمخ لا يكون إلا في عظم ، والعظم في لحم ، ودم ؛ فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجًا بالثناء ؛ فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية ، والرغبة فيها مشوبًا بالخير ، تصريحًا من الداعي بمعتقده ، وتوسلًا منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه ؛ فكأنه متوسل إليه بإيمانه ، واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم ، وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته ، وحباهم بكرامته"[(٣)].

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤٣٦/٢) .

(٢) إغاثة اللهفان (٣٥/١) .

(٣) بدائع الفوائد (١١/٢-١٢) .

وَقَالَ -أَيْضًا- رَحِمَهُ اللهُ : وحصول الإجابة عقيب سؤال الطالب -على الوجه المطلوب- دليل على علم الرب تعالى بالجزئيات ، وعلى سمعه لسؤال عبيده ، وعلى قدرته على قضاء حوائجهم ، وعلى رأفته ، ورحمته بهم ، والإحسان إلى المطيعين ، والتقرب إليهم ، والإكرام ، وإعلاء درجاتهم يدل على محبته ، ورضاه ، ... ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة ، كما قال تعالى ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: ٢١] ؛ فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب جل جلاله ، ونعوته ، وأسمائه ، فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنى ، وحقائقها ، وتنادي عليها ، وتدل عليها ، وتخبر بها بلسان النطق والحال ، كما قيل :

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

تشير بإثبات الصفات لربها ... فصامتها يهدي ومن هو قائل

فلست ترى شيئًا أدل على شيء من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ، ونعوت كماله ، وحقائق أسمائه ، وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها ، فهي تدل عقلًا ، وحسًا ، وفطرة ، ونظرًا ، واعتبارًا"[(١)] ،

٢) ومن مقاصد الدعاء : الإيمان -بانشراح ، وقبول ، ورضا- بالقدر خيره ، وشره ، وأنه من الله جل وعلا ؛ حلوه ، ومره ، وأن الدعاء من قدر الله جل وعلا ،

قَالَ اِبْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ : "المقدور قُدِّر بأسباب ، ومن أسبابه الدعاء ، فلم يقدر مجرداً عن سببه ، ولكن قدر بسببه ؛ فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى لم يأتِ بالسبب انتفى المقدورُ ، وهكذا ؛ كما قدِّر الشِّبَعُ ، والرِّيُّ بالأكل ، والشرب ، وقُدِّر الوَلَدُ بالوطء ، وقُدر حصول الزرع بالبذر ، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه ، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ، ودخول النار بالأعمال ، وهذا القسم هو الحق ، وهذا الذي حرمه السائل ولم يوفق له ، وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب ، فإذا قُدر

(١) مدارج السالكين (٣/٣٣١-٣٣٢) .

وقوعُ المدعوّ به لم يصحّ أن يقال : لا فائدة في الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة في الأكل ، والشرب"[(١)].

وَقَالَ اِبْنُ أَبِي الْعِزِّ الْحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : "**وقولهم** -أي أهل الكلام- : إن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء ؟ قلنا : بل قد تكون إليه حاجة ، من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة ، وآجلة، ودفع مضرة أخرى عاجلة ، وآجلة ،

وكذلك قولهم : وإن لم تقتضه ، فلا فائدة فيه ؟ قلنا : بل فيه فوائد عظيمة ، من جلب منافع ، ودفع مضار ، كما نبه عليه النبي صلى الله عليه وسلم — وهو قوله صلى الله عليه وسلم : "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَسْأَلَةٍ إِلَّا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ ، إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَهَا لَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ"[(٢)]- بل ما يعجل للعبد من معرفته بربه ، وإقراره به ، وبأنه سميع ، قريب ، قدير ، عليم ، رحيم ، وإقراره بفقره إليه، واضطراره إليه ، وما يتبع ذلك من العلوم العلية ، والأحوال الزكية ، التي هي من أعظم المطالب .

فإن قيل : إذا كان إعطاء الله معللًا بفعل العبد ؛كما يعقل من إعطاء المسؤول للسائل، كان السائل قد أثر في المسؤول حتى أعطاه؟!

قلنا : الرب سبحانه هو الذي حرك العبد إلى دعائه ، فهذا الخير منه ، وتمامه عليه ، كما قال عمر رضي الله عنه : «إني لا أحمل هم الإجابة ، وإنما أحمل هم الدعاء»[(٣)]، ولكن إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِيْ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّوْنَ﴾[فصلت:٥]، فأخبر سبحانه أنه يبتدئ بالتدبير ، ثم يصعد إليه الأمر الذي دبره ، فالله سبحانه هو الذي يقذف في قلب العبد حركة الدعاء ، ويجعلها سببًا للخير الذي يعطيه إياه ؛كما في العمل ، والثواب ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ، ثم قبلها ، وهو الذي وفقه للعمل ، ثم أثابه ، وهو الذي وفقه للدعاء ، ثم أجابه ، فما أثر فيه

(١) الجواب الكافي ؛ لابن القيم ، ص : (١٧) .

(٢) رواه أحمد (٩٧٨٥) .

(٣) ذكره شيخ الإسلام في الاقتضاء (٦٠٧/٢) .

شيء من المخلوقات ، بل هو جعل ما يفعله سببًا لما يفعله ، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير ، أحد أئمة التابعين : «نظرت في هذا الأمر ، فوجدت مبدأه من الله ، وتمامه على الله ، ووجدت ملاك ذلك الدعاء»[(١)] "[(٢)].

نكمل في الحلقات التالية إن شاء الله .

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣٥١٣٥) .

(٢) شرح الطحاوية (٢/٦٧٨-٦٧٩) .